صفية غلول

ابنه الحسب والنسب الثائرة

- أم المصريين كانت دائما وراء الزعيم
- حاولت أن تكون «ثقيلة» فتجاهلها زوجها وركضت خلفه بخفة.
- نفى الإنجليز زوجها فقادت الإنتفاضة عليهم
- لم تعرف مساحيق التجميل واعتبرت خدمها عائلتها.
- أعادت كلماتها المهذبة الحاسمة سعداً إلى صوابة وأبعدته عن طريق القمار.
- تجاوزت الستين وهو يكتب لها رسائل الغرام.
- أحرقت رسائله خشية وقوعها فى أيدى من لا يقدرون الحب.

قد تكون شخصية رجل محدد طاغية، وتترك آثارها بارزة فى معالم شخصيات الآخرين، وفى سلوكهم، وإذا كان الزعيم الوطنى المصرى سعد زغلول، من أولئك الرجال أصحاب الشخصية النافذة إلى الآخرين، فقد كانت صفية زغلول مثالاً للمقولة الشهيرة «وراء كل رجل عظيم امرأة».

وُلِدَت صفية زغلول سنة ١٨٧٨م، وهى ابنة مصطفى فهمى باشا، رئيس وزراء مصر، مدة تجاوزت ١٥ عاماً، وكان مصطفى فهمى، محافظاً للإسكندرية قبل أن يتولى منصب ناظر (وزير) الأشغال العمومية فى وزارة شريف باشا الثانية، التى شُكلت في شهر يوليو ١٨٧٩م.

وربِّيت صفية، فى بيت ترجع أصوله إلى الأتراك فأمها «أصانيش هانم» من الأتراك، وربتها تربية أرستقراطية، مستفيدة من كونها زوجة رئيس الوزراء وتحت يدها وطوع أمرها الخدم والحشم، وكعادة الأسر الأرستقراطية فى ذلك الوقت، كان المعلمون يحضرون إلى القصر لتعليم صفية، وإخوتها العربية والتركية والإنجليزية والقرآن الكريم، وأيضاً الموسيقى والرسم.

عاشت صفية حياة ترف ودلال، شأن سكان القصور وبلغ من اهتمام والدها بها هى وشقيقاتها، أن اشترى لها «آغا» (عبد خادم) اسمه «فيروز» مكلفاً بخدمتها، والسهر على راحتها، واشترى لشقيقتها «أغوين» وانتقلوا معهما حين تزوجتا، إلى بيت الزوجية.

وكانت صفية فتاة جميلة رقيقة مثقفة، مهذبة، وعندما بلغت عامها الثامن عشر، فوجئت بأحد أبناء الفلاحين يتقدم إلى الباشا طالباً يد ابنته للزواج.

الفلاح

كان الشاب الذى تقدم إلى مصطفى فهمى باشا، طالباً يد ابنته، هو سعد زغلول الفلاح المولود فى يونيو ١٨٨٦م فى قرية «إبيانة» الواقعة على فرع رشيد، والده هو عمدة «ابيانة» إبراهيم زغلول، ومثل جميع أقرانه، التحق سعد بكُتاب القرية، ثم انتقل إلى «دسوق» ليتلقن أصول تجويد القرآن الكريم، على يد المقرئ الشهير فى ذلك الوقت الشيخ «عبد الله عبد العظيم» وأقام هناك فترة حضر بعدها إلى القاهرة، ليتلقى تعليمه فى الأزهر الشريف، ثم احترف المحاماة، وعمل فى سلك القضاء، وعندما كان مستشاراً فى محكمة الاستئناف أدلى برأى قانونى تشريعى مهم للغاية، وكان رئيس المحكمة وقتها فرنسياً يدعى «بوغديك» الذى التفت إلى «سعد» قائلاً: إن هذا الرأى خليق أن يبدر عن «قاسم أمين» أو غيره من حملة الليسانس، ومنذ تلك اللحظة عكف سعد، على دراسة اللغة الفرنسية والقانون، حتى حصل على الليسانس فى ٩ يوليو ١٨٩٧م، وكان عمره وقتذاك ٣٧ سنة.

وكان سعد صديقاً لقاسم أمين، ومقتنعاً بأفكاره عن المرأة دورها فى المجتمع، فأراد لنفسه زوجة، توافقه فى العقل والخلق. وهذا ما وجده فى صفية، ابنه مصطفى فهمى باشا، الذى وافق على زواج ابنته بالفلاح المحامى، فكسر بذلك، تقاليد قديمة فى عائلته ذات الأصول التركية، التى كانت ترفض مصاهرة الفلاحين.

ولم يكن زواج سعد زغلول، بصفية هانم، بالأمر السهل، فقد كان هناك من يريد ألا يتم هذا الزواج وفى مقدمتهم الأميرة نازلى فاضل، التى سعت لدى الخديوى عباس حلمى الثانى، لتمنع هذا الزواج. وأرسلت إلى «أصانيش هانم» زوجة مصطفى فهمى باشا من يخبرها أن العريس فلاح لا يعرف كيف يأكل بالشوكة والسكين، وذهبت إلى الباشا تقول له إن سعداً متزوج من امرأة يخفيها فى قريته.

ولكن سمعة سعد، وأخلاقه واجتهاده فى عمله، كانت مسوغات كفيلة بأن يقبله الباشا زوجاً لابنته، فقد استشف بخبرته وحنكته السياسية الطويلة، أن هذا الشاب يبشر بمستقبل سياسى واعد، وأنه سيكون له شأن كبير فى تاريخ أمته.

وفى يوم الخميس ٦ فبراير ١٨٩٦م، احتفل الشيخ سعد الذى خلع العمامة، وارتدى الطربوش ونزع «الكاكولة» والقفطان ولبس البنطلون يوم ترك دراسة الأزهر، واشتغل بالمحاماة، بزفافه إلى «صفية هانم» التى أصبحت فى تلك الليلة تدعى صفية زغلول، وكان قد وصل إلى منصب قاض فى محكمة الاستئناف، وظل سعد يوم زفافه، فى مكتبه يراجع القضايا التى يحكم فيها ومن مكتبه بحى «غمره» إلى قصر حماه حيث الكوشة، كان هناك سرادق منصوب يتسع لآلاف المدعوين، تضرب أمامه الموسيقى العسكرية. وقد أحيا الحفل المطرب عبده الحامولى.

وتقول صفية زغلول عن تلك الليلة: «ذكرت لى أمى «أصانيش هانم» أن العريس سوف يصحبنى فى عربة حنطور من بيت أبى إلى بيته فى حى «الظاهر» وقالت لى: «عندما تقف العربة أمام بيت العريس، سينزل ليقول لك: «تفضلى» فامتنعى عن النزول، فيقول لك مرة ثانية «تفضلى» فامتنعى أيضاً حتى يطلب منك النزول للمرة الثالثة، واتبعيه إلى داره، وكانت هذه هى التقاليد المتبعة فى العائلات الأرستقراطية الكبيرة.

وأطاعت «صفية» تعليمات أمها، فما إن وقفت العربة ونزل العريس، وقال بصوته الآمر: «تفضلى» حتى تمنعت فى إنتظار ترديده دعوته مرتين أخريين، إلا أنها فوجئت به يتركها، ويمشى إلى داره، فوجدت نفسها تقفز من العربة لتعدو وراءه، ومنذ تلك اللحظة أصبحت «صفية» تجرى خلف زوجها دائماً.

بروتوكول منزلى

يقول الكاتب عباس محمود العقاد، عن علاقة سعد وصفية: كانت صفية فى علاقتها مع سعد، مثل الابنة التى تتعلم من والدها وتطيعه فى أدنى أمور

حياتها، حتى فى ملبسها وزينتها، وتأبى أن يقوم على شؤونه خادم أو خادمة، فكانت تشرف على أمور بيتها بنفسها، من ترتيب المنزل، إلى طهو الطعام.

ولكن سعادتهما لم تكتمل، فقد حُرما من نعمة الإنجاب، وقد زارا عواصم أوروبا، لكن الأطباء أجمعوا علي أن صفية لن تُنجب.

ولأن صفية أحبت زوجها سعد، فقد رضيت بالقدر الذى حرمها من أن تنجب له البنت أو الولد، ورضى الزوج بقضاء الله، ووجد العوض فى تربية ولدى أخته «رتيبة» قرينة محمد أمين يوسف، وهما التوءم، على ومصطفى أمين، اللذان عاشا معه حتى بلغ عمرهما ١٣ سنة.

كانت صفية زغلول، ربة بيت ممتازة، تتحرك بنشاط غريب بين طوابق البيت، ومع أنها كان لديها عدد من الخدم، إلا أنها لم تكن تتردد أن تمسك بيدها «فوطة» لتمسح «الغبار» أو تحمل فى يدها مكنسة لتنظيف شرفة البيت.

صفية والعائلة

ولم يكن سعد يتدخل فى شؤون الخدم، وكانت زوجته ترفض أن تسميهم خدماً، بل تصر على أن تسميهم العائلة، وقد تعلمت ذلك من سعد الذى كان يقول دائما، إن خدمه هم جزء من عائلته، ويرفض أن يقدم لهم طعاماً يخالف طعامه، بل يصر أن يأكلوا من الطعام الذى يأكله.

وكانت صفية، تكره النساء المتبرجات ولم تضع «البودرة» كما يقول مصطفى أمين على وجهها إلى آخر يوم فى حياتها، حتى إنها لم تضع المساحيق يوم زفافها، لأن سعد قال يوماً إنه يكره البودرة، ويحب الوجه الطبيعى بلا طلاء.

وإذا كان سعد قد رضى بحياة زوجيه غير مثمرة، إلا أنه كان يتمنى الزواج بإحدى الفلاحات، حتى يكون له ولد، ولكنه سرعان ما عدل عن هذه الفكرة ونذر نفسه للجهاد الوطنى.

وبعد ٢١ سنة من زواجهما، طلبت صفية زغلول الطلاق، ليس لاكتشافها

امرأة أخرى فى حياة زوجها، وإنما بسبب انغماسه فى لعب القمار، وخسارته مبلغ ٣١٠ جنيهات، أخذها من نقودها.

ولكنها كانت امرأة مهذبة تعرف كيف تتحدث إلى زوجها بأدب رغم غضبها من اتجاهه إلى القمار، وأعادت كلماتها المهذبة الحاسمة سعداً إلى صوابه، وأبعدته عن طريق القمار.

ومثلما كانت تغار هى عليه، كان يغار هو أيضاً عليها، فقد غضب غضباً شديداً بسبب هدية تلقتها من طاهر بك اللوزى وهى سلة من ثمار «المانجو» الفاخرة ومعها خطاب منه يبلغها فيه تحياته، ويرجوها قبول الهدية.

ورغم غيرتها كانت صفية تؤكد للجميع أنها سعيدة فى زواجها، وتبذل كل جهدها لإبعاد المعجبات عن سعد، ومنهن الأميرة «شويكار» الزوجة الأولى للملك فؤاد، التى كانت تطارد سعداً باستمرار، وتتردد على «بيت الأمة» تطلب مقابلة صاحبه، وكانت صفية تعتذر لها بأن زوجها مشغول جداً أو نائم أو غير موجود، لكن شويكار كانت لا تيأس، أو تمل الطلب، بينما تقدم صفية لها، الحجة تلو الحجة. فقد كانت تظن أن الإنجليز يدسون الأميرة على سعد، لتشوه سمعته بين الجماهير، كان دفاع صفية الوحيد استقبال شويكار، بأدب بالغ، والتأكيد لها بلباقة، أن زوجها سعيد جداً بزواجه منها ولم يعرف سعد إلى أن رحل، أن الأميرة شويكار، قد طلبت مقابلته أكثر من مائة مرة، وأن صفية، اختلقت لها مئات الأعذار.

وكان الزوج يكتب لزوجته خطاباً غرامياً فى كل مرة يتناول طعامه خارج البيت، واستمر يكتب غراماً لصفية إلى ما بعد الستين، وعندما رحل حرقت هى الخطابات خشية أن تقع فى أيد لا تعرف قيمة الحب الذى كان.

على طريق النضال

تحققت فراسة، مصطفى فهمى باشا، والد صفية، وعلانجم زوج ابنته، فقد تولى وزارة المعارف ثم وزارة العدل، وحصل على «الباشوية»، ولم ينس «الباشا» أنه فلاح ابن فلاح، وأن عليه الدفاع عن تراب وطنه.

وما إن أُعلنت الحماية البريطانية على مصر فى ديسمبر سنة ١٩١٤ واشتعلت شرارة الحركة الوطنية، حتى نهض كالأسد، مطالباً بحق مصر فى الاستقلال.

وتصاعدت حركة الجهاد الوطنى بقيادة سعد زغلول، وكانت الشرارة التى أشعلت الثورة هى قبض الإنجليز على سعد ورفاقه، فى ٨ مارس ١٩١٩ وهم: سعد زغلول باشا، ومحمد محمود. باشا، وحمد الباسل باشا، وإسماعيل صدقى باشا. وساقتهم إلى ثكنات «قصر النيل» ثم إلى مالطا فى اليوم التالى.

وكانت صفية قد سارت على نهج زوجها، فتزعمت الحركة النسائية فى مصر، وشاركت فى أول تظاهرة نسائية فى القاهرة، عام ١٩١٩ احتجاجاً على أعمال القمع البريطانية، وقرار نفى سعد زغلول، وكانت قد شكلت هيئة وفدية من النساء، تأييداً للمطالب القومية، وكان لتلك الهيئة نفوذ أدبى، ومجهودات شجاعة، أكسبتها ثقة الشعب، ووقفت صفية زغلول، خلف هذه المجهودات التى كانت موضع تقدير الزعيم سعد زغلول.

وليلة القبض على زعيم الأمة، أرادت «أم المصريين» وهو اللقب الذى صارت تعرف به صفية هانم زغلول، النزول معه ومصاحبته فى المعتقل، وألحت فى ذلك إلحاحاً كبيراً، إلا أن سعداً هداها، وطلب منها البقاء، فبقيت بالغة التأثر.

ولم تكد تشرق شمس التاسع من مارس ١٩١٩م حتى كان نبأ القبض على سعد ورفاقه من أعضاء الوفد قد انتشر فى جميع البلاد.

تظاهرة نسائية

وظلت صفية زغلول رابطة الجأش وعلى اتصال بالتحركات الثورية، تشد من أزر المتظاهرين، حيث أضرب الطلبة وساروا فى تظاهرة كبيرة، وأضرب عمال الترام، وقدم موظفو الحقانية «العدل» احتجاجاً على اعتقال سعد، ورفاقه. وفى ١١ مارس أضرب المحامون عن العمل، وفى ١٣ مارس قُطعت خطوط السكك الحديدية، وأسلاك البرق، والهاتف فى كل أنحاء البلاد، وفى ١٦ مارس شهدت شوارع القاهرة تظاهرة نسائية حاشدة كانت فى مقدمتها رئيس لجنة سيدات الوفد

«هدى شعراوى» وغيرها من عقيلات العائلات هاتفات بحياة سعد ورفاقه، مطالبات بالحرية والاستقلال، مناديات بسقوط الحماية البريطانية، ولم ترهب بنادق الإنجليز المتظاهرات، فوصلن إلى «بيت الأمة» حيث خطبت فيهن «أم المصريين».

أحدثت الثورة تحولاً كبيراً فى شخصية صفية زغلول، التى قال لها سعد: «إننى قررت أن أضع رأسى على كفى اليمنى، فقالت له: «وضعّ رأسى على كفّك اليسرى»، وبعد أن قبض الإنجليز على زوجها، تبدّلت القطّة الوديعة، إلى نمرة مفترسة، فصارت السيدة الخجول، امرأة جريئة أصبحت ابنة رئيس الوزراء صديق الإنجليز، ابنه الشعب عدو الإنجليز، وإذا بالزوجة المطيعة، تتحول إلى زعيمة ثائرة.

وكانت صفية تكتب المنشورات الحماسية ضد الإنجليز وتوقعها بإمضائها: «صفية زغلول» واشتعلت المقاومة، وبدأت المعارك بين الشعب والجيش البريطانى فى كل ميدان، وكان أكبر ميدان قتال فى الثورة هو شارع سعد زغلول الذى يقع فى أوله بيت سعد، والذى أطلق عليه الشعب «بيت الأمة».

كانت زوجة الزعيم الثائرة تتابع أخبار التظاهرات، وأنباء المعارك، عندما كان الإنجليز يطلقون رصاصهم في صدور المتظاهرين، أمام بيت الأمة، يحمل الناس القتلى، والجرحى إلى حديقة البيت، وكانت «أم المصريين» تغمض عيون القتلى الشهداء، وتضمد جراح الجرحى، تعاونها الكثيرات من النساء وأصبح من أهم أعمالها فى سنوات الثورة أن تذهب بنفسها فى عربتها، «الحنطور» إلى بيوت الشهداء، تواسى الأمهات وتعزى الزوجات، وتُقَبّل الأطفال اليتامى.

وفى ١٦ يناير ١٩٢٠ خرجت النساء فى تظاهرة فى العاصمة تأييداً للوفد وقيادته ومنادية بالاستقلال ومعادية للجنة «ملنر»، وفى ٩ مارس ١٩٢٠ فى ذكرى مرور عام على الثورة، أجتمعت النساء فى منزل سعد زغلول، وألهبت صفية حماستهن، وأكدن جميعاً المطالب القومية، ووقوفهن خلف قيادة «زعيم الأمة».

حديث الروح

وعاد سعد من مالطا، لكنه رفض الاعتكاف فى عزبته بعيداً عن القاهرة، فشهدت صفية زغلول اعتقاله، ونفيه إلى جزيرة سيشل، فى ٢٢ ديسمبر ١٩٢١،، وظلت متماسكة حتى غادر زوجها البيت، وقالت لمن حولها: «سعد سجين سيشل، لكننى روحه الثانية، وزوجته التى تصون مكانه، وعندما عرض عليها المندوب السامى مصاحبة زوجها، ردت عليه بكبرياء: «سأظل فى القاهرة، وسأبذل كل ما فى وسعى لأكمل عمل زوجى وأنتم تستطيعون أن تنفوه بجسده، لكنكم لن تستطيعوا أن تبعدوا روحه عنا، لأنها تعيش وسوف تظل تعيش بيننا، وفى بيته سأكون سعداً، حتى يعود، لأن الشعب لن يرضى بغيابه، ولن يمكنكم من إبعاده طويلاً، وحتى لو مات سعد، فسيأتى كثيرون غيره، يتقدمون الصفوف، ومن جهتى سوف أفعل كل ما أستطيع لأشغل روح الثورة فى سبيل استقلال مصر».

وأعدت صفية ولجنة الوفد المركزية للسيدات منشوراً تم توزيعه فى كل أنحاء البلاد بعنوان: «نداء حرم الرئيس» جاء فيه: «لئن كان سعد، فى المنفى، فإن هذا النفى لا يهدّ من عزيمته إلا شئ واحد، هو أن يعلم يوما أن الضعف قد اعتراكم، ولو لحظة واحدة».

أم المصريين

ولم تكن صفية زغلول فى الحقيقة، سوى أم لكل المصريين، كانت الأم الروحية للرجال والنساء، وقد شجعت هدى شعراوى أن تكون الرئيسة الفعلية للجنة السيدات، وإن كانت هى ترعى الحركة النسائية وتوجه النساء فى كفاحهن.

وظلت تتابع أحوال سعد باشا وهو فى المنفى وتُبرق إلى السلطات البريطانية مطالبة بالإفراج عنه، وعلى أثر مرضِ الزعيم تم نقله إلى جبل طارق فى ١٦ أغسطس ١٩٢٢م، وفى سبتمبر من نفس العام، سافرت أم المصريين، إلى هناك لتكون إلى جوار زوجها، حتى عادا إلى الوطن.

وعاد «الباشا» ليواصل كفاحه، ومن خلفه وبجواره شريكة العمر، والكفاح صفية هانم، التى قال لها يوماً:

« لقد حُرمنا من النسل، فأصبحت هذه الأمة كلها من أبنائك وأبنائى، فلقبت صفية «أم المصريين»، وفى عام ١٩٢٤ شكل سعد زغلول الوزارة وظل يجاهد حتى بعد أن أصبح رئيساً لمجلس النواب، حتى وهن منه الجسد بعد أن عانى من التهاب فى الأذن وارتفاع فى درجة الحرارة وألم فى الأمعاء. وفى الثالثة ظهراً من يوم الأثنين ٢٣ أغسطس ١٩٢٧، قال سعد لزوجته متمتماً: «أنا رايح.. أنا رايح ، فقالت له صفية: «هل تحب أن أروح معك؟»، فأمسك بيدها هامساً: «لا خليك أنت».

وودعت مصر زعيمها سعد الذى دُفن فى قبر فى حى الإمام الشافعى، ومكثت صفية زغلول، تقطع يومياً هذه المسافة مدة تسع سنوات، إلى أن قرر البرلمان نقل جثمان سعد من قبره فى الإمام الشافعى، إلى ضريحه أمام بيت الأمة. وأُقيمت له جنازة شعبية ثانية عام ١٩٣٦، لا تقل ضخامة عن جنازته الأولى عام ١٩٢٧.

وكانت غرفة نوم صفية، تطل على الضريح، وكانت إذا استيقظت من نومها اتجهت أول ما تفتح عينيها إلى نافذتها التى تطل عل الضريح وتقرأ الفاتحة على روح الرجل الذى أحبته منذ رأته لأول مرة. ليلة فرحها، وترتدى ملابسها بعد الظهر، وتذهب إلى الضريح، ،تنثر عليه الزهور، وتقف صامته عشر دقائق، وكأنها تناجى رجلها بصوت لا يسمعه إلا هو.

وظلت ترتدى السواد عشرين عاماً، ورفضت أن تخلعه، وقالت إنها ستخلع السواد يوم يخرج أخر جندى أجنبى من مصر، وفى الثانى من يناير ١٩٤٦ أى بعد وفاة سعد، زوجها بعشرين عاماً، توفيت أم المصريين، ودُفنت فى المقبرة نفسها، وبالقرب من شريك حياتها.